التجربة الصوفية عند أدباء تلمسان "عفيف الدين التلمساني أنموذجا"

The Sufi experience of Tlemcen's writers " Afif al-Din "Tlemceni model

الدكتورة مغني حنان

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان-الجزائر-

البريد الالكتروني: maghni.hanan@gmail.com

الملخص :

حظيت تلمسان في سالف عصرها بمكانة حضارية راقية، فقد كانت حاضرة للعلم والحضارة والأدب، ومنارة للعلماء والأدباء على اختلاف مناهجهم ومشاربهم. مما جعلها تضاهي حواضر العالم الإسلامي في مختلف الميادين الفكرية والعلمية والأدبية، بفضل نوابغ علمائها وأدبائها.

ولعل من أشهر مانبغ فيه أدباء وشعراء تلمسان الشّعر الصّوفي ، إذ يعد التّصوف واحد من الموضوعات المهمة التي حظيت بالنصيب الأوفر في الأدب التّلمساني، فقد كان مقصد الكثير من الشّخصيات الأدبية التّلمسانية حتى أننا لانكاد نطلع على شخصية شعرية من شعراء تلمسان إلا ووجدنا لها نفحات من التّجربة الصّوفية.

وعليه سنحاول في هذه المداخلة أن نلقي الضّوء على التّأليف في التّجربة الصّوفية عند أدباء تلمسان مركزين على شخصية عفيف الدّين التّلمساني كنموذج لذلك.

الكلمات المفتاحية: التّجربة الصّوفية ،أدباء تلمسان ،عفيف الدّين التّلمساني .

Abstract:

Tlemcen enjoyed a distinguished cultural status at the beginning of the century. He was present for science, civilization

المنارة للاستشارات

and literature, and a beacon for scientists and writers from different programs and courses. Making it comparable to the cities of the Islamic world in various fields of intellectual, scientific and literary, thanks to its scientists

Sufism is considered one of the most important topics that received the greatest share in Tlemceni literature. It was the destination of many literary figures who spoke about the Sufi experience in its works.

We will therefore try to shed light on the paternity of the Sufi experience in the poets of Tlemcen, focusing on the character of the poet Afif al-Din al-Telmcani as a model.

Keywords: Sufi experience, Tlemcen literature, Afif al-Din Telmcani

مقدمة :

يعد التّصوف واحد من الموضوعات المهمة التي حظيت بالنصيب الأوفر في مجال الفكر الإسلامي ، فقد كان مقصد الكثير من الباحثين والدّارسين على اختلاف تياراتهم و اتجاهاتهم المعرفية، فبعضهم نظر إليه كتيار أدبي شعري ، وبعضهم الآخر نظر إليه كتيار ديني ، ومنهم من رأى فيه تيارا فلسفيا ،وهناك من نظر إليه نظرة اعتقادية ارتبطت بخرافات المجتمع وأساطيره.

ونحن في مقامنا هذا سنسعى إلى دراسته باعتباره تيارا أدبيا شعريا،فقد ذكر التّصوف عند الشعراء كنموذج من نماذج الأدب الإسلامي شأنه في ذلك شأن المديح النّبوي والزّهد ،فقد كان لهذه الأغراض الشّعرية دور فعال في نشر الإسلام وترسيخ قيمه ،ومثلما كان هناك رجال دين وفقهاء يسعون إلى تعليم النّاس أصول دينهم الإسلامي، كان هناك أيضا أدباء وشعراء يسعون إلى ذلك وتاريخ الأدب الإسلامي منذ فجر الدّعوة الإسلامية أكبر شاهد على ذلك .

المنارة للاستشارات

ولعل من أشهر الحواضر التي احتضنت التّصوف وذاع صيته فيها حاضرة تلمسان، إذ عرفت هذه الأخيرة برجال الصّوفية الذين أبدعوا فيه باعتبار منهجا دينيا وسلوكا أخلاقيا وتجربة أدبية شعرية بعيدا عن ما يسيء للإسلام أو يفسد العقيدة.

ومن الأسماء التي سطعت في سماء شعر التّصوف التّلمساني والتي جمعت بين تزكية النّفس وقرض الشّعر شخصية عفيف الدّين التّلمساني.

هذه الشخصية التي ستكون محور مداخلتنا من خلال الطّرح الآتي:**كيف نشأ شعر التّصوف في تلمسان؟ وماهي تجلياته وموضوعاته في شعر عفيف الدّين التّلمساني؟ وهل كانت تجربة الصّوفية للعفيف التّلمساني مشابهة لأقرانه من شعراء التّصوف أم مغايرة؟**

وللإجابة على هذا سنحاول الوقوف على ما يلي:

أولا: مفهوم التّصوف

ثانيا:التّصوف عند أدباء تلمسان _عفيف الدّين التّلمساني نموذجا_

وذلك بهدف إحياء التّراث الصّوفي الذي عرفت به تلمسان التي كانت قبلة للعباد والنّساك ومقصدا لرجال الدّين وأولياء الله، وكان المنهج التّكاملي هو المتبع في هذه الدراسة التي اقتضت تنوعا منهجيا تراوح بين المنهج التّاريخي تارة، وبين المنهج الاستقرائي تارة أخرى ، بالإضافة إلى المنهج الاستنباطي والتّحليلي .

أولا: مفهوم التّصوف

اقتضت طبيعة البحث أن نقدم تعريفا عن مفهوم التّصوف باعتباره محور ومفتاح الإشكالية المطروحة.

1. لغة: مشتق من الفعل صوف جاء في مقاييس اللغة لابن فارس:" صاف من باب الإبدال من صوف وقال أبو الهيثم كبش صوفان، ونعجة صوفانة وقال غيره :الصّوفان :كل من ولي شيئا من عمل البيت، وكذلك الصوفة، وفي

المنارة للاستشارات

الأساس وآل صوفَانَ :كانوا يخدمون الكعبة ويتنسكون، ولعل الصّوفية نسبت إليهم.[1]

وقال الجوهري في الصّحاح " : الصّوف للشاة، ويقال لواحدة الصوف، صوفة ويصغر صويفة

وفي الأساس، فلان يلبس الصّوف والقطن، أي ما يعمل منهما[2] "

وذكره الفيومي في معجمه المصباح المنير، حيث قال:"تصوف الرجل ،وهو صوفي من قوم صوفية كلمة مولدة."[3]

نلاحظ بأنّ الفيومي يصرح بأنّ كلمة التصوف كلمة ليست عربية المصدر وإنما هي من الألفاظ

المولدة الوافدة إلى البلاد العربية نتيجة الامتزاج الثقافي بين الأمة العربية والأمم الأعجمية.

أمّا عن الأصل الاشتقاقي لكلمة التّصوف فقد اختلفت الآراء وتعددت ، فمنهم من يرى أن أصل التّصوف دخيل على التراث الإسلامي فهو يعود إلى كلمة سوفيا اليونانية والتي تعني الحكمة والتي من منطلقها تأسست الفيلاسوفيا ، أي محب الحكمة.[4]

و هناك من يرى أنّ أصل الصوفية يعود "للبسهم الصّوف" [(5)] وذلك – حسب اعتقادهم – اقتداء بالنّبي صلى الله عليه وسلم في تواضعه [(6)]، بالإضافة إلى ذلك نسب الصّوفي إلى لبس الصوف لعلاقة ذلك ذلك بالزهد

---

[1] ينظر: " مقايس اللغة": أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، ص 213

[2] " الصحاح": الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،ص 210

[3] المصباح المنير": أحمد بن محمد الفيومي ، ص134

[4] ينظر: نشأة الفلسفة الصوفية" عرفان عبد الحميد فتاح ،ص 108

[5] التّعريف لمذهب أهل التّصوف:" أبو بكر الكلاباذي ، تحقيق: عبد الحليم محمود ، ص21

[6] ينظر::"التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق": زكي مبارك ،ج 1 ،ص45

المنارة للاستشارات

وأكد هذا الرأي ابن خلدون في مقدمته إذ يقول:"وهو الأظهر وهم في وإن قيل بالاشتقاق أنّه من الصوف، الغالب مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة النّاس في لبسهم فاخر الثياب إلى لبس الصوف". [8] [7]

وهناك من يرى أنّ أصل التّصوف نسبة إلى "الصف الأول من الواصلين"[9]، أو من الصّفة بضم الصاد نسبة إلى أهل الصفة من فقراء المسلمين الذين بنى لهم الرّسول عليه الصلاة والسلام صفة خارج مسجد المدينة ليبيتوا فيها[10] ،وهناك من يرى أنّ أصل التّصوف "من الصفاء بمعنى أنّ الصوفي قد صفا قلبه لذكر الله " [11]

وهذا ما اتفق عليه الجمهور حيث "يذهبون إلى القول بأنّ لفظ الصّوفي مشتق من الصّفاء، وأنّ الصّوفي هو أحد خاصة أهل الله الذين طهّر الله قلوبهم من أكدار هذه الدنيا. " [12]

وعلى أساس هذا الإجماع نخلص إلى أن التّصوف ذو أصول إسلامية[13] وإن اختلفت الآراء حوله فمرد ذلك يعود إلى الاتجاهات المختلفة التي درسته كل على ضوء رؤيتها الخاصة.

2. التّصوف اصطلاحا: مما لاشك فيه أن كلمة التّصوف في المفهوم الاصطلاحي أعقد وأحفل بالمناقشة والجدل، والسبب – بطبيعة الحال – يعود الى أن التّصوف لم يستقر عند جماعة واحدة بل تعددت التيارات الفكرية التي تناولته بين أدباء وفلاسفة ورجال دين ومفكرين. وعليه سنأخذ

---

[7] الشعر الصّوفي" :عدنان حسين العوادي ،ص 24

[8] "مقدمة ابن خلدون" عبد الرحمن بن خلدون ،تحقيق: محمد محمد تامر، ص391

[9] "موسوعة الفلسفة والفلاسفة":عبد المنعم الجفني ،ص395

[10] المصدر نفسه : ص395

[11] المصدر نفسه ، ص395

[12] "الرمزية في الأدب العربي" درويش الجندي، ص 329

[13] ينظر::موسوعة الفلسفة والفلاسفة"، عبد المنعم الجفني ، مرجع سابق ص5

المنارة للاستشارات

لمحة تعريفية خاطفة عند كل واحد من هؤلاء لنصل في الأخير للتعريف الجامع المانع لمصطلح التّصوف الإسلامي.

فالتّصوف في الفكر الإسلامي هو تكامل معرفي جمع بين الفلسفة والأدب والدّين الإسلامي الحنيف هذه المعارف التي وإن اختلفت نظرتها اجتمعت على مفهوم واحد ولعل أقربها وأجمعها ماذهب إليه ابن خلدون، حيث قال: "هذا العلم من العلوم الشّرعية الحادثة في الملة وأصله أنّ طريقة هؤلاء لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعيين ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها... والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعد وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية و المتصوفة."[14]

3 . **التّصوف عند الأدباء:** ذكر التّصوف عند الشعراء كنموذج من نماذج الأدب الإسلامي شأنه في ذلك شأن المديح النّبوي والزّهد ،فقد كان لهذه الأغراض الشعرية دور فعال في نشر الإسلام وترسيخ قيمه ومثلما كان هناك رجال دين وفقهاء يسعون إلى تعليم النّاس أصول دينهم الإسلامي، كان هناك أيضا أدباء وشعراء يسعون إلى ذلك، وتاريخ الأدب الإسلامي منذ فجر الدّعوة الإسلامية أكبر شاهد على ذلك، ومن المعلوم أنّ الشّعر تجربة إبداعية تصدر عن مشاعر وجدانية متأثرة بما يحاط بها من ظروف اجتماعية ،فنجد أنّ كل أديب او شاعر يأتي شعره معبرا عن رؤيته واتجاهه ومن هنا نشأ – على سبيل المثال – شعر الزّهد الذي نشأ على أيدي الزّهاد ، وشعر التّصوف الذي ظهر على أيدي المتصوفة وإن كان كلاهما وجهين لعملة واحدة ذلك أنّ

[14] ينظر :عبد الرحمن بن خلدون:" المقدمة"، مرجع سابق، ص 391

المنارة للاستشارات

التّجربة الشّعرية تمثلت في الزّهد الواجد والورع الصّادق،والتعبد الكامل، والإخلاص الباعث على البر والإحسان لكافة الخلق الباعث" [15] ،كما أنّ التّصوف أتى "بمعنى الانقطاع إلى الله و العزلة عن كل ماسواه و كان نتيجة طبيعية لنزعة الزهد التي ظهرت قوية في الإسلام أثناء حكم الدولة الأموية. "[16]

وإذا كان الزّهد تجربة وجدانية تتلخص في نبذ الدّنيا و البعد عن ملاذها ، فإنّ التّصوف بدوره يجعل من التّمسك بالفقر و الافتقار مقصدا من مقاصده وهو ما يجعله شبيها بالزهد يضاف إلى هذا صفاء النفس ،و محاسبتها وقصد وجه الله تعالى ، ومحبة خلق الله بقلب مليء بالرحمة و التحلي بالأخلاق الفاضلة اقتداء برسولنا الكريم. "[17]

إذن يستنتج من هذا أن شعر التّصوف "هو نزوع تأملي يعتمد على خيال الفرد وذوقه ويهتم على الخصوص بالنفس وصفاتها".[18] فالتصوف "وجدان مهما اختلفت تعاريفه ، و خصوصيته تجعل منه فكرا ذوقيا حتى مع اختلاف اتجاهاته."[19]

يلاحظ أنّ المتصوفين في تصوفهم يعتمدون على أمرين: الخيال والذّوق وهما من أهم خاصيتين يتأسس عليها الشّعر ، فالشاعر لا ينظم شعره إلا اعتمادا على التّصور والخيال.[20]

وتاريخ الشّعر العربي يكشف عن تلك الأسماء الشّعرية الكثيرة التي سطعت في سماء شعر التّصوف والتي جمعت بين تزكية النّفس وقرض الشّعر الذي جاء نموذجا عن شعر الغزل العفيف أو الحب العذري.[21]

---

[15] "التصوف في الإسلام منابعه وأطواره" :محمد الصادق ابراهيم عرجون ،ص82

[16] المرجع نفسه : ص94

[17] ينظر: "التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية" محمد مرتاض ،ص 17، -18

[18] ينظرالتّصوف الإسلامي بين التأثير والتأثر" محمد عباسة :" ،ص 5

[19] المستشرقون والتصوف الإسلامي": محمد السرغيني، ص 142

[20] ينظر: "شعر المناسبات الدينية ونقد الواقع المعاصر": سعيد أحمد غراب ، ص 9

المنارة للاستشارات

غير أنّ الحب عند شعراء الصّوفية يعتمد على الرموز والمصطلحات والإشارات ولاتدرك معانيه إلا بالتأويل.

ويرجح المؤرخون أنّ أول شعر ورد فيه ذكر صريح للحب الإلهي تضمنته مقطوعة شعرية تعود إلى المرأة الصوفية رابعة العدوية، تقول فيها

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاك

فأمّا الذي هو حب فشغلي بذكرك عمن سواك

وأمّا الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك[22]

ثانيا : التّصوف عند أدباء تلمسان

عرفت تلمسان بأنها بلاد العلماء والأدباء ومهد الصّالحين والعباد وقبلة العارفين وأولياء الله ، فقد حباها الله بسّر رباني جعل الذنفوس تتوق لها وتنشرح فيها الصدور للذكر وتهدأ القلوب وتسكن للتنسك والعبادة ، يقول عنها المقري:" هذه مدينتنا علقت بها التمائم ، وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء."[23]

ويقول الحميري :"ولم تزل تلمسان على قديم الزمان مخطوبة مرغوبا فيها."[24]

فقد كانت تلمسان ميدانا خصبا للتّصوف ورجاله أمثال القطب الرّباني أبي مدين شعيب،ابن مرزوق الحفيد التّلمساني،محمد بن يوسف السّنوسي التّلمساني، و العفيف التّلمساني... وغيرهم كثير ،وقد دونوا تجاربهم الصّوفية في أشعار وقصائد جمعت بين الاجتهاد في العبادة والإبداع في قرض الشّعر ،وقد كان للشعر الصّوفي بتلمسان "قالبا تعبيريا رفيعا ، ونمطا مستقلا من

---

[21] ينظر: ا"لتّصوف الإسلامي بين التأثير والتأثر" :محمد عباسة مصدر سابق، ص 9

[22] ينظر: المرجع نفسه10

[23]:"نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" :المقري التلمساني، حققه: إحسان عباس ،ج9، ص340

[24] "الروض المعطر في خبر الأقطار" الحمري محمد عبد المنعم، حققه: إحسان عباس، ص 135

المنارة للاستشارات

الانتاج الشعري، تميز بخصائص انفرد بها عن غيره من الأغراض الشعرية فهو شعر الرّمز والكناية والحكمة الذي يحتاج القارئ له إلى تأويل دلالات الصوفية ، والاصطلاحات الإلهية التي وافقت المعاني الرّوحية التي اهتم الصّوفي بكشفها لنفسه أو لمريديه."[25]

ويعد عفيف الدّين التّلمساني واحد من الشعراء الصّوفيين التّلمسانين الذين جسدوا تلك التّجليات الصّوفية من خلال تجربته الشّعرية.

1. التّجربة الصّوفية عند عفيف الدّين التّلمساني

أ . نبذة عن حياته ونشأته: بعد اطلاعنا على الكثير من المصادر والمراجع التي تضمنت سيرة الشّاعر عفيف الدّين التلمساني، وجدنا أنّ معظمها تتفق أن اسمه أبو الربيع عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن علي بن ياسين العابدي الكومي التلمساني[26]

المعروف بالعفيف التلمساني [27] والمشهور عند سكان تلمسان بسيدي حفيف، وتذكر بعض المصادر أنه يعرف بالكوفي التلمساني وهي نسبة خاطئة لأنّ الأصل في ذلك هو الكومي التّلمساني نسبة إلى قبيلة كومية في الجزائر وهي قبيلة عربية صغيرة تقع بساحل البحر من أعالم تلمسان[28]

فنسبه ينتهي إلى قبيلة تقيم بمدينة ندرومة بتلمسان ، وهي منطقة عبد المؤمن بن علي الموحدي التلمساني، مؤسس الدّولة الموحدية بالمغرب العربي.

أمّا عن مولده فالمتفق عليه هو 610هـ ونستند في ذلك على ما نقله الذهبي في الترجمة له" مولدي سنة عشرة وستمائة."[29]

---

[25] ا"لتجليات الإلهية عند شعراء تلمسان الصوفيين":فاطيمة داود ،مجلة حوليات التراث ، الجزائر ،العدد17، 2017، ص85

[26]."العفيف التلمساني شاعر الوحدة المطلقة" عمر موسى، باشا،ص35 38

[27] المرجع نفسه 35

[28] ديوان عفيف الدين التلمساني:تحقيق:يوسف زيدان، ج1، ص11

[29] عفيف الدين التلمساني شاعر الوحدة المطلقة: عمر موسى، المرجع السابق ص40

المنارة للاستشارات

وفي ربوع تلمسان نشأ عفيف الدّين وتلقى منها ارهاصاته الأولية لمنهجه الصّوفي وراح يصول ويجول في بلاد المسلمين مشرقا ومغربا حتى وجد ضالته وهو الشيخ صدر الدّين القونوي تلميذ ابن عربي[30]،فلزمه ملازمة طويلة وصحبه في رحلاته التي كانت أغلبا إلى بلاد مصر[31]وهنا في مصر التقى بشخصية صوفية أخرى لاتقل مكانة على سابقتها وهي شخصية الصّوفي الأندلسي محمد عبد الحق بن سبعين يقول عن ذلك المنوى في طبقاته:"لما قدم شيخه القونوى رسولا إلى مصر اجتمع به ابن سبعين لما قدم من المغرب، وكان التلمساني مع شيخه ، قالوا لابن سبعين كيف وجدت القونوي في علم التوحيد ؟فقال إنه من المحققين ، لكن معه شاب أحذق منه ، وهو العفيف التلمساني."[32]

استقر العفيف في مصر وطاب له المقام بها حينا من الدّهر ، ثمّ شدّ رحاله نحو دمشق ونال فيها شهرة واسعة كواحد من شعراء الصوفية البارعين [33] يقول في مدحه القاضي شهاب الدين بن الفضل:"نسيم سرى، ونعيم جرى،وطيف لا بل أخف موقعا منه في الكرى، لم يأت إلا بما خف على القلوب،وبرئ من العيوب ، رقّ شعر فكاد أن يشرب، ودق فلا غرو للقضب أن ترقص و الحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها لا استئذان ، وولج القلوب ، ولم يقرع الآذان ، وكان لأهل عصره بشعره افتنان."[34]

توفي العفيف التّلمساني سنة 690 هـ عن عمر يناهز الثّمانين سنة بدمشق يقول عن وفاته ابن شاكر:

---

[30] ينظر: ديوان عفيف الدين التلمساني ،المصدر السابق ص13

[31] المصدر نفسه، ص13

[32] المصدر نفسه ص 19

[33] ينظر: المصدر نفس ص14

[34] المصدر نفسه ص14

المنارة للاستشارات

" إنّ التلمساني عندما كان يحتضر ، سأله أحد أصدقائه عن حاله فقال بخير، من عرف الله كيف يخافه ، والله منذ عرفته ماخفته وأنا فرحان بلقائه."[35]

يستنتج من هذه السّيرة المختصرة أنّ شخصية العفيف التلمساني شخصية تمتعت بتنوع في الاتجاهات فجمعت بين الأدب والتّصوف والتّرحال[36] ، مما جعل منها شخصية متميزة فريدة عكست صورة تلمسان الحضارية والثّقافية.فقد"كان له في كل علم تصنيف."[37]

ومن مؤلفاته:شرح منازل السائرين لشيخ الإسلام أبو اسماعيل عبد الله بن محمد بن علي المعروف بالهروي الأنصاري وهو مؤلف يتناول موضوعات صوفية ويظهر فيه الأصول الشّرعية للقرآن الكريم التي تنطلق منها المفاهيم الصّوفية فأثار هذا الكتاب ضجة كبيرة في أواسط الصّوفية وكان العفيف التّلمساني واحد من الذين اطلعوا على هذا المؤلف وقدم عليه شرحا وافيا[38]، بالإضافة إلى شروحات أخرى للمؤلفات الصّوفية كشرح كتاب المواقف لأبي عبد الله محمد بن عبد الجبار النفري وشرح تائية ابن الفارض شرح فصوص الحكم لابن عربي ... وغيرها[39] ، كما شرح أسماء الله الحسنى وهو من أهم الشروح على الإطلاق ، تتجلى فيه وحدانية الله عزوجل بعمق ودقة.[40]

وللعفيف التلمساني باع في علم العروض فقد قدم رسالة في ذلك ذكرها كرونكوف في دائرة المعارف وقال

---

[35] المصدر نفسه ص19

[36] ينظر:شعر عفيف الدين التلمساني وحياته دراسة وتحقيق أطروحة دكتورا ه : زغدود فوراح جامعة سطيف ، كلية الأداب 2013 ص 5

[37] الديوان، مصدر سابق، ص22

[38] ينظر: المصدر نفسه ص24

[39] ينظر: المصدر نفسه28

[40] ينظر: المصدر نفسه31

المنارة للاستشارات

"بأنها الأثر الوحيد المتبقي من مؤلفات التلمساني"[41]

ومما لاشك فيه أنّ من أشهر ماكتب فيه عفيف الدّين التّلمساني ديوانه الشّعري وهو "أكثر أعماله تعبيرا عن شخصيته، وآفاق تصوره فإذا كانت سائر مؤلفاته باستثناء رسالته في العروض هي شروح لما كتبه السذابقون ، فإنذ هذا الدّيوان هو المؤلف المستقل الذي لم يتقيد فيه العفيف بعبارة غيره، ليعبر عما يراه من حقائق المحبة وغيرها من ملامح الطّريق الصّوفي.

ب . موضوعات شعره: بعد اطلاعنا على الدّيوان الشّعري للعفيف التلمساني وجدنا أنّ نصوصه الشّعرية كلّها تدور حول موضوع واحد وهو التّصوف يقول عن ذلك عمر موسى باشا :"إن كل ماعندنا من شعره لايتعلق في الغالب بالمجتمع الواقعي الذي يحيط به، وإنما يفصح عن المجتمع الصوفي بما فيه من مفاهيم وسلوكيات ومواهب ومواجد ، أي أنه يعبر عن مجتمع خاص يمثل عالما خاصا به، ويعبر شعره عن عقائد كثيرة من المتصوفة المؤمنين بالكمال والوحدة المطلقة."[42]

1 . الغزل الصّوفي أو الحب الصّوفي: معروف أنّ الحب هو المحبة والود نقيض البغض والكراهية[43] فهو عاطفة وجدانية محلها القلب ، وقد وردت في الذّكر الحكيم عدّة مرات من ذلك قوله تعالى:" **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**."[44] ويقول أيضا عزوجل:" **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ**

[41] دائرة المعارف كرونكوف ص463

[42] العفيف التلمساني :شاعر الوحدة المطلقة"، مرجع سابق، ص67

[43] لسان العرب :" ابن منظور "، ج 3 ص 290

[44] سورة آل عمران: الآية31

المنارة للاستشارات

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ "[45]

وقد عرف مصطلح الحب عند العرب منذ العصر الجاهلي من خلال قصائد الشّعراء الجاهليين الذين تغزلوا وأفصحوا عن مشاعر الحب التي كانوا يكنونها لمحبوباتهم أمثال قيس ليلى ، عنترة عبلة ،كثير عزة ، جميل بثينة ... وغيرهم.

أمّا عن مصطلح الحب الإلهي فقد ظهر مع التّيار الصّوفي الذي شاع في المجتمع الإسلامي ، ويرجع المؤرخين مصدر هذه التّسمية إلى المرأة الصّوفية رابعة العدوية التي عبدت الله عزوجل من منظور الحب والود لا من منظور الرّهبة والخوف، يقول محمد مصطفى حلمي:" وإننا إن كنا نرى رابعة من زهاد عصرها عباد قد تتغنى بالحب أو العشق، فإن أحدا من هؤلاء الزهاد أو العباد لم يسبق رابعة إلى استعمال لفظة الحب استعمالا صريحا وتوجيهه إلى الله توجيها قويا وربطه بالكشف".[46] ومما لاشك فيه أنّ الحب الإلهي عاطفته عاطفة روحية سامية بعيدة عن الشّهوانية والدّنس مترفعة عن الدّنيا وملذاتها مما قد تدعو إليه عاطفة الحب الإنساني.

ومحبة الله تعالى هي أسمى ماقد يصل إليه الإنسان، ولكن هذه المحبة لاتحتبس سرا في القلب بل يجب أن يجليها المحب في أفعاله وأقواله .

وهذا هو الحب عند الصّوفية محبة بين الله وخلقه، وهذا ما أشاد به العفيف التّلمساني في أشعاره التي تغنى فيها بمحبة الله عزوجل بلغة رمزية يشترط على قارئها العمق في فهمها، ومن نماذج ماقاله في محبته لله عزوجل أبيات نظمها على وزن الطّويل.

---

[45] المائدة 54

[46]" ابن الفارض والحب الإلهي": محمود مصطفى حلمي ، ص141

المنارة للاستشارات

أحب حبيبا لاأسمّيه هيبة وكتم الهوى للقلب أنكى وأنكأ

أخاف عليه من هواي فكيف لا أغار عليه من سواي وأبرأ

أبيت أعاني فيه حرّ جوانحي وبين جفوني مدمع ليس يرقأ

أراه بقلبي كل يوم وليلة وإن كنت عن ورد الوصال أحلأ[47]

ونظم على وزن الخفيف أبيات قال فيها:

لاتلم صبوتي فمن حبّ يصبو إنما يرحم المحبّ المحبّ

كيف لا يوقد النسيم غرامي وله في خيام ليلى مهب

ماعتذاري إذا خبت لي نار وحبيبي أنواره ليس تخبو[48]

ومن خلال اطلاعنا على هته الأبيات التي اقتصرنا على ذكرها على سبيل المثال لا الحصر يظهر لنا أنّ الشّاعر التلمساني كانت نفسه تفيض عشقا وحبا في ذات الله تعالى، ويلاحظ أنه قد حذا في التّعبير عن حبه الإلهي حذو شعراء الغزل في تغزلهم بالمرأة، والدّليل على ذلك توظيفه لاسم ليلى ، حيث يتبادر للقارئ في الوهلة الأولى أنها قصيدة غزلية ،نظمها على نظم القيس بن الملوح في تغزله بمحبوبته ليلى، لكن لابد من أخذ ذلك على وجه التلميح لا التصريح فشعراء الصوفية لم يجدوا لغة تسعفهم وتلبي غرضهم في الإفصاح عن حبهم للذات الإلهية المنزهة المقدسة سوى اللغة التي خاطب بها المحب محبوبته.[49]"ويثبت لنا هذا الأمر الصلة الوثيقة بين الغزل العذري

[47] الديوان مصدر سابق ص70، 71

[48] المصدر نفسه ص 83

[49] ينظر: "شعر عفيف الدين التلمساني وحياته" ، زغدود فوراح أطروحة دكنوراه ، مصدر سابق ص76

المنارة للاستشارات

والحب الصوفي"[50]، لكن المحبوبة في الشّعر الصّوفي هي صورة محسوسة تشكل وسيلة وليست غاية.[51]

وحاصل القول: يظهر لنا أنّ عفيف الدين التلمساني كان متأثرا بأسلافه القدامى حيث عبر عن حبه الإلهي بلغة استقاها من التّراث العربي لشعر الغزل العفيف العذري الذي كان شائعا في البيئة العربية منذ العصر الجاهلي.

2 . **الخمر**:مثلما عرف عن العرب تغنيهم وتغزلهم بالمرأة في العصر الجاهلي ، عرف عنهم أيضا تغنيهم بكؤوس الخمر ولذة السكر ،وقد بلغوا ذروة ذلك في العصر العباسي نتيجة انتشار مجالس اللهو والمجون فبالغوا في ذكر الخمر ووصفها في شعرهم حتى لقبت قصائدهم بالخمريات، وإن كان الإسلام قد حرمها تحريما قطعيا بأدلة صريحة من القرآن الكريم يقول الله تعالى:" **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا."**[52]

غير أنّه ومع هذا التّحريم وظفها شعراء التّصوف في أشعارهم كرمز للتعبير عن بلوغ الشّاعر الصوفي منتهى اللذة في حب محبوبه ،وذلك لما فيها من تشابه بين السّكر الحسي الناتج عن شرب الخمرة والسّكر الصّوفي النّاتج عن الدّهشة واللذة والفناء في حب الذات الإلهية.[53]

ولانجد مؤلفا من مؤلفات الشّعر الصّوفي إلاّ ولرمز الخمرة حضوره، وعفيف الدّين التّلمساني من بين شعراء الصّوفية الذين وظفوا ذلك، إذ يقول في ديوانه:

يأأبا الخير قم لك الخير فاطرب مسمع الفقر منك ذاك الغناء

---

[50] الرمز الشعري عند الصوفية":عاطف جودة نصر ، مرجع سابق ، ص118

[51] ينظر: التجليات الإلهية عند شعراء تلمسان الصوفيين ".فاطيمة داود ، مصدر سابق، 86

[52] سورة البقرة: الآية219

[53] ينظر:" تجليات الشعر الصوفي قراءة في الأحوال والمقامات " ص337

المنارة للاستشارات

لاتفت كاسك التي من لماها هي فيها تنافس الندماء
لم أقل قد عدتك كأسك لكن ربما طوحت بك الصهباء
إنما يشرب التي تسلب العقل ندامى هم لها أكفاء
أسكروها بهم كما أسكرتهم في ابتداهم بها فتم الوفاء
فجزاء منها ومنهم وفاق ووفاق منها ومنهم جزاء [54].

وإن كان شارب الخمر يشربها لتتفقد عقله وينغمس في لذته وينسى ألمه، فالشاعر الصّوفي يشربها لتصحي عقله لمحبة الله عزوجل ، يقول في ذلك عفيف الدين التلمساني :

عجبت لكأس قد صحوت بشربها بها أبدا سكري عليّ يعربد[55]

يلاحظ أنّ الشاعر عفيف الدين التلمساني قد صرح بلفظ الخمر في شعره ، والمقصود بها الخمرة الصّوفية التي توصل شاربها إلى أسمى درجات اللذة الناتجة عن الفناء في المحبة الإلهية ، فالخمر عند شعراء الصّوفية هي " العلم والمعرفة المؤثران في ذائقهما ، وهي الحب أيضا لدى الصوفية ، وهي رمز من الرموز الصوفية الكبرى"[56]

وهي عندهم سر من أسرار المحبة الإلهية ويستدلون عليها بقوله تعالى:" **مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ**." [57]

والمطلع على ديوان عفيف الدّين التلمساني يجد أنّه أسهب في حديثه عن الخمرة في قصائده ـ وحسبنا ماذكرناه لأن المقام لايسع للإطناب والتّفصيل ـ وهي عنده سر من أسرار المحبة الإلهية شأنه في ذلك شأن شعراء الصّوفية جميعا.

---

[54] الديوان 76

[55] نفسه ص180

[56] "القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري" : ضحى يونس، ص 119

[57] سورة محمد الآية 15

المنارة للاستشارات

3 . **الطّبيعة** :تعد الطذبيعة بعناصرها المختلفة المتنوعة آية من آيات الوجود الإلهي، وقد جعل الله تعالى من خطاب التّكليف ضرورة النّظر في ملكوت السّماوات والأرض،قال تعالى:" **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** "[58] ، وفي القرآن الكريم تربية عقائدية كونية ملخصها: أنّ الوجود الكوني صفة للموجود الحق سبحانه وتعالى.

والقرآن الكريم أسهب في الحديث عن الكون ، وذلك لإعطاء المسلم نظرة صحيحة متكاملة عنه، فهو النّقطة الأساسية التي يمعن فيها الفرد المسلم فكره لإثبات وجود الله[59].

كما أنّه لايمكننا أن نتجاوز في هذا المقام تلك الالتفاتة التي أعطاها الشّاعر العربي في العصر الجاهلي للطبيعة، فالشّاعر العربي ابن طبيعته عاش تحت سقف سمائها وتوسد تربة أرضها وتقلب في قفارها وفالاتها ، فكانت مصدر إلهامه فأبدع في وصفها وحذا حذوه أغلب الشعراء على مرّ العصور.

ولم يكن شعراء الصّوفية بدعا عن ذلك فهم أيضا جعلوا للطبيعة بعناصرها حظا موفورا في قصائدهم، لكن بنظرة مغايرة تعتمد على لغة رمزية ،فالطبيعة في الشّعر الصّوفي "غدت شفرة يقرأ الصوفي فيها بضرب من الكشف لغة ذات حدين ، أحدهما حسي فيزيائي ، والآخر روحي إلهي."[60]

فالشّاعر الصّوفي في حديثه عن الطّبيعة يبحث عن سر هذا الكون ليثبت من خلاله وجود الله عزوجل ،فالكون في نظرهم هو رمز للذات الإلهية " وعلى

---

[58] سورة البقرة الآية 164

[59] الإسلام والحضارة:محمد عبد الهادي أبو ريدة ، تحقيق:فيصل بدير عون، ، ج3 ، ص252

[60] الرمز الشعري عند الصوفية": عاطف جودة نصر، ص 290

المنارة للاستشارات

ذلك فإن الصوفية كانوا يتعشقون بالعين في الكون إن صح التعبير لذلك شمل حبهم كل مظهر من مظاهر الوجود ، وعمّ الطبيعة الساكنة منها والمتحركة ، ولانقول الصامتة و الناطقة ، لأنّ الطبيعة بالنسبة للصوفي ناطقة كلّها في سكونها وحركاتها."[61]

وقد احتفى الشّاعر العفيف التلمساني بالطبيعة في شعره ووظف عناصرها توظيفا رمزيا من ذلك :

رمز الطير أو الحمام الذي يقول عنه:

وورق حمائم في كلّ فن إذا نطقت لها لحن صواب

لها بالظل أزرار حسان وأطواق ومن ورق ثياب[62]

ويقول أيضا:

وللأغصان هينمة تحاكي حبايب رق بينهم عتاب

تثنت والحمام لها يغني كشرب مدامة شربوا وطابوا[63]

والحمام في شعر العفيف رمز للحرية والفرح فمثلما تحلق الطيور في السّماء فرحا كذلك تحلق النّفس فرحا بالفناء في حب الذّات الإلهية ، كما أنّه رمز للبحث عن الحيقيقة والمعرفة [64]استنادا لقوله تعالى" **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مالي لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فقال أَحَطتُ بما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ.**"[65]

---

[61] "شعرية الخطاب الصوفي"،محمد يعيش، ص147

[62] الديوان، مصدر سابق،ص79

[63] المصدر نفسه ص81

[64] ينظر: القضايا النقدية في النثر الصوفي: ضحى يونس، مرجع سابق، ص115

[65] سورة النمل:الآية 20 21 22

المنارة للاستشارات

وخلاصة القول: إنّ الشعر الصّوفي عند الشّاعر عفيف الدّين التّلمساني مثّل نموذجا رائعا عن التّجربة الصّوفية عند أدباء تلمسان بمنهج إسلامي معتدل بعيدا عن شطحات وخرافات الصّوفية الباطلة.

خاتمة: بعد هذه الوقفة الموجزة مع موضوع التّصوف عند أدباء تلمسان والتي ركزنا فيها على شخصية عفيف الدّين التلمساني توصلنا إلى مجموعة من النّتائج يمكن عدّها فيما يلي:

أولا: يعد التّصوف من المذاهب الدّينية التي انتشرت في العالم الإسلامي كنزعة تدعو إلى الزّهد والاعتكاف والعبادة وترك الانغماس في التّرف وملذات الدّنيا، وقد كان محط أنظار الكثيرين على اختلاف مشاربهم ومذاهبم الفكرية ،فبعضهم نظر إليه كتيار ديني ، وبعضهم الأخر نظر إليه كتيار أدبي، ومنهم من رأى فيه تيارا فلسفيا، وهناك من نظر إليه نظرة اعتقادية ارتبطت بالخرفات والأساطير.

ثانيا: يمثل التّصوف عند الأدباء نموذجا للأدب الإسلامي شأنه في ذلك شأن المديح والزّهد يسعى من

خلاله الأدباء والشّعراء إلى ترسيخ مبادئ العقيدة وقيم التربية الإسلامية القويمة، وتاريخ الشعر العربي يكشف عن تلك الأسماء الشعرية الكثيرة التي سطعت في سماء شعر التّصوف والتي جمعت بين تزكية النّفس وقرض الشعر.

ثالثا:شاع التّصوف في بلاد الإسلام وذاع صيته مشارق الأرض ومغاربها، وكانت حاضرة تلمسان واحدة من أهم الحواضر الإسلامية التي احتضنت المذهب الصّوفي ورجاله، وكانت بذلك مهد النّساك وقبلة العباد ومقصد أولياء الله.

رابعا: يستنتج من عرضنا المختصر لسيرة شخصية العفيف التلمساني أنّها شخصية تمتعت بتنوع في الاتجاهات فجمعت بين الأدب والتّصوف والتّرحال

المنارة للاستشارات

، إذ يعد الشاعر عفيف الدّين التلمساني من أهم الشعراء التلمسانين الذين جسدوا التّجربة الصّوفية بمنهج ديني سليم بعيدا عن الخرافات والأساطير التي تخدش في أصول العقيدة الإسلامية.

خامسا: بعد اطلاعنا على الدّيوان الشّعري للعفيف التلمساني وجدنا أنّ نصوصه الشّعرية كلّها تدور حول موضوع واحد وهو التّصوف برموزه الثلاث المرأة ، الخمر ، الطبيعة.وبهذا نخلص إلى أنّ التّجربة الصوفية عند عفيف الدين التلمساني لم تخرج عن دائرة الفكر الصّوفي الذي أسس له كبار شعراء الصّوفية أمثال ابن عربي وغيره والعفيف التلمساني ليس إلاّ واحدا من تلك النّخبة النيرة من شعراء تلمسان الصّوفيين الذين عبروا عن نضجهم الدّيني وعمق تجربتهم الشّعرية التي التي كشفت الحجب في معرفة الذّات الإلهية بمعان روحية صادقة أشرقت بها النّفوس وجعلوا من تلمسان رمزا للإشعاع الدّيني والحضاري.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

الكتب:

1ـ "ابن الفارض والحب الإلهي": محمد مصطفى حلمي ، القاهرة ، دار المعارف ،ط2

2 ـ "الإسلام والحضارة": محمد عبد الهادي أبو ريدة ، تحقيق:فيصل بدير عون، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط1 ، ج3 ،2011

3ـ"التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية": محمد، مرتاض، الجزائر، بن عكنون،ديوان المطبوعات الجامعية، دط ، 2009م.

4 ـ "تجليات الشعر الصوفي قراءة في الأحوال والمقامات ":أمين يوسف عودة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 ،2001

المنارة للاستشارات

5 ـ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق":زكي مبارك ،بيروت ،منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر،دط ،دت ،ج 1

6 ـ "التصوف في الإسلام منابعه وأطواره" :عرجون محمد الصادق ابراهيم عرجون ، بيروت، داروحي القلم، ط 1 ،2004م

7 ."التّعريف لمذهب أهل التّصوف": أبو بكر الكلاباذي ، تحقيق: عبد الحليم محمود،القاهرة ،مكتبة الثقافة الدينية"،ط1 ،2004،

8 ـ "ديوان عفيف الدين التلمساني" :يوسف زيدان ، دار الشروق، ج1، دط، دت

9 ـ "الرمز الشعري عند الصوفية": جودة نصر عاطف: ، بيروت، دار الأندلس ط1

الجووهري : " الصحاح"، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،لبنان، بيروت، دار العلم للملايين، ط 4 ،1990

10 ـ "الرمزية في الأدب العربي": درويش الجندي،القاهرة،دار النهضة للطباعة والنشر،دط ،1972

11. "الروض المعطر في خبر الأقطار": محمد عبد المنعم الحمري ، حققه: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان 1979

12. "الشعر الصّوفي" :العوادي عدنان حسين العوادي ،العراق،دار الشؤون الثقافية العامة، دط ،1986

13 :"شعر المناسبات الدينية ونقد الواقع المعاصر" سعيد أحمد غراب ،كفر الشيخ ، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط 1 ،2007

14 ـ " الصحاح": الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،لبنان، بيروت، دار العلم للملايين، ط4 1990

المنارة للاستشارات

15 . "العفيف التلمساني شاعر الوحدة المطلقة":عمر موسى باشا ،منشورات أبراد اتحاد العرب للكتاب ،دمشق، 1982.

16 . " لسان العرب" :أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ،لبنان، بيروت، دار صادر، ط 6، 1417هـ ،1997م.

17 ."المستشرقون والتصوف الإسلامي" محمد السرغيني ،مراكش، مطبوعات أكاديمية المملكة المغاربية،19

18 . ""المصباح المنير" :أحمد بن محمد الفيومي،لبنان،بيروت،مكتبة لبنان،دط 19 .

. 19"مقايس اللغة":أحمد بن فارس ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،مصر، دار الفكر، ط 2 ، 1989.

20 . "مقدمة ابن خلدون" :عبد الرحمن بن خلدون : تحقيق: محمد محمد تامر،مصر، القاهرة،مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 200518

21 . "موسوعة الفلسفة والفلاسفة": عبد المنعم الجفني ، مصر ، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط2 ،1997م .

22 . "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب": المقري التلمساني ، حققه: إحسان عباس ، لبنان، بيروت، دار صادر، ج 21

23. "نشأة الفلسفة الصوفية" :عرفان عبد الحميد فتاح ، المكتب الإسلامي، ط8

المجلات:

1 . التجليات الإلهية عند شعراء تلمسان الصوفيين" داود فاطيمة : ،مجلة حوليات التراث العدد17، 2017

2 . "التّصوف الإسلامي بين التأثير والتأثر": عباسة محمد ، مجلة حوليات التراث، الجزائر، ع 10– .2017

الرسائل الجامعية:

المنارة للاستشارات

1 . شعر عفيف الدين التلمساني وحياته دراسة وتحقيق أطروحة دكتورا ه زغدود فوراح جامعة سطيف ، كلية الأداب 2013:

المنارة للاستشارات